

أدب الاختلاف

قراءة في سجلات "الوهراني" (ت 575 هـ)

د/ شميصة غربي -

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة سيدي بلعباس

يفيض القلم - أحيانا - بكتابات تهدم قانون الأجناس الأدبية، فيتبعثر المكتوب بين شظايا الإبداع المنفلت من شرعية المنطق المتمرد على المعروف الشائع، والباحث عن وجهة مغايرة تحتوي الممارسة الكتابية، فيصبح بالإمكان استفزاز القارئ وإقحامه في خطر المساءلة:

- ما الذي سار بالنص هذا المسار؟

- من الذي ارتضى للنص هذا التعتيم البالغ حد انفصام الوشيجة بين النص وبين الجنس الأدبي الذي قد نحسبه منه؟

- أهو غياب الصورة الحقيقية - للأدب - عند من رسخ مقولة الأجناس الأدبية، واحتفى بها احتفاء عجيبا؟ أم هو تملص المبدع من ملاحقة الطقوس الرتيبة وتهشيم أسلاك الافتراضات في تفسير الأدب، ومحاولة تفكيك معناه عن مبناه؟

تشتد المساءلة، حين أقرأ نصوص "الوهراني" ركن الدين محمد بن محمد بن محرز" فأجدني أمام توليف يتشترق حول طاقة تخيلية عالية،

تتموضع على جدارية تهكمية متلونة بتلك التجربة الإنسانية المنكمشة وراء ذوبان النفس في وجع الاختناق العلائقي بين المبدع والمحيط.

يتحدث "الوهراني" في ركن مسروداته عن إحدى جلساته - الوهمية - على لسان أحد الجلّساء: «...ضيعتم الوقت في حديث الوهراني، والله إن ملك المغرب نحس، ما جاءنا منهم إلا حارس كرم أو ناطور بستان وهذا الوهراني من بينهم، شهد الله أثقل على القلوب من الغدة الخارجة في الحلق، وأوحش من الورم النافر في الأوداج (...)، اللهم إلعن الوهراني من الجهات الست، اللهم العن ما يقابل الوهراني من الأوج والحضيض، اللهم العن الهولي التي شاركت العناصر في تكوينه، والله ما أعرف في مقعر فلك القمر، ولا في محذب هذه الكرة الترابية أشر من ذلك الخبيث، يا قوم ما أدق مثاقبه في الشر، يا قوم ما أشد نفوذ خاطره في النذالة، سبحان الله ما أهدها إلى طرق الفساد...»¹.

في معاينة أولية، يبدو تحرك النص داخل فضاء دلالي مشحون بالسخرية المستندة إلى مشهد راصد لمعاني الإغراق في تسفيه الآخر، عن طريق تسفيه الذات، إنها الثنائية المقنعة، حيث تبدو المغامرة منتقاة في تكسير النمط الاعتيادي للمحكّي عنه، فالمشهد يعج بصخب النعوت الممقوتة والمراهنة على تبديد كل مبهج في المنزع الإنساني، حيث الانهيار المتلف لنقاوة الباطن، والملغى لفاتحة الخير باستحضار دلالات الضمور والتبرم والامتعاض وما شئت من ألوان المطاردة السخيفة داخل متن يشي بالتفرد في رحاب الكتابة العربية المعهودة.

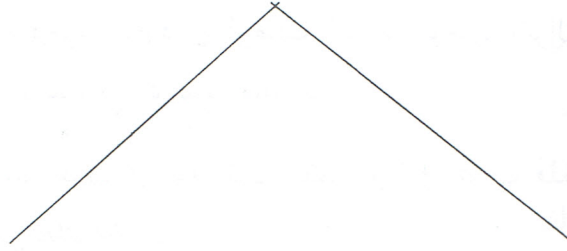
يرسم "الوهراني" لنفسه - أو قل لغيره - لوحة جارحة يعلقها على
خيط هجوم جغرافي ينفث من خلاله انفعاله بذكر المكان:

"ان ملك المغرب نحس".

"ما جاءنا منهم إلا حارس كرم".

يتسع المكان عند الوهراني لكل مُشين، هارب من قيود القبول، المكان
عنده رقعة نحس مفخخة تربض على استئثار صورة ممقوتة للملكي المكان
- فالمكان بأصحابه كما يقال - إنه أيقونة لمخابئ الذات الناكسة على
أعقابها ...، النص يحكي ذلك الصدع الذي يصطنع سبيل الاختلاف في
الكتابة العربية، فهذا هو الوهراني يدق أبواب التنكر لذاته أو لغيره -
حسب تأويلك أيها القارئ- موظفا المقولة الأساس، وتفريعات
مشخصة لهذه المقولة، ويمكن الرصد على هذا المستوى:

مقولة الانتماء الممقوت (وهذا الوهراني من بينهم)



علة المقت (النحس) طبيعة الخبث لعنة الممقوت (اللهم العن الوهراني)

تنظم التفريعات في سلك من العلامات المنحرفة عن الواقع، فهذا
الوهراني حسب السارد:

- "أثقل على القلوب من الغدة الخارجة في الحلق".

- "أوحش من الورم النافر في الأوداج".

إنه تشبيه ساخر، يهيئ ساحة التقاطع مع موجبات المقت، فالمتتاليتان تنبئان عن التحفظ في هضم الصورة، إذ مهما كان ثقل ظل المرء في المجالس، فلن يقابل بأكثر من الإعراض عنه وتغريبه بين الجلساء، وأما أن يستبدل "الإعراض" بصورة "الغدة الخارجة" و"الورم النافر"، فذلك ما يشي بدلالات ضرورة البتر النهائي لمسببات العلة المشخصة في انفراط العقد الاجتماعي المتخيل عند السارد.

وتتقاطع السخرية مع اللعنة:

- "اللهم العن الوهراني من الجهات الست".

- "اللهم العن الوهراني من الأوج إلى الحضيض".

- "اللهم العن الهولي التي شاركت العناصر في تكوينه"،

ويصل الاغتيال مداه، فيعود السارد إلى الوصف الساخر الموجب لإنزال اللعنات على شكل تنزيد أربع متواليات ماقتات:

1- "والله ما أعرف في مقعر فلك القمر، ولا في محدب هذه

الكرة الترابية، أشر من ذلك الخبيث".

2- "يا قوم ما أدق مثاقبه في الشر" !.

3- "يا قوم ما أشد نفوذ خاطره في الندالة".

4- "سبحان الله ما أهده إلى طرق الفساد" !.

في هذه الرباعية يفيض المشهد بمعالم الهدم للذات الإنسانية، إنه صراع الأحقيات القابع وراء تنضيد نعوت الإساءة المحمية بقانون:

كن هكذا !!

أو

ترمى بهذا !!

وكأنني بالسارد يمتعض من منظومة المقت داخل المشهد، وما دام تأمل العيب معيب، فجده يستنجد بتدخل سريع يوظفه على لسان أبي المعالي بن العميد « بالله عليكم اقتصروا واختصروا، فقد حرمت على نفسي سماع الغيبة والتقصيص، ولولا أنني شافعي المذهب لا يحل لي أكل لحم الكلب، لأفضت معكم فيما أنتم فيه، على أنكم لن تجدوا للوهراني عرضاً يلثم، ولا مجداً يهدم، وهو دون كل ما ترمونه به، وإن إشغالكم الوقت بحديثه تضييع للزمان، فإنه ما يصلح إلا لحمل المشعل (...) والمصيبة أنه مع هذا يتمكن ويتمشعر، ويعمل أشياء تشبه جوف لحيته، وما أدري بأي شيء ينفق على المقدمين؟ وهو لا يعرف شيئاً من أصناف الفواكه لو سئل عن تفضيل أجناس الرمان أقل الأشياء، ما عرف إيش يقول...؟...»².

يتربع هذا المشهد على خصيصة التعريض الصريح، فالسارد يجنح بأجواء جلسائه إلى التذكير برذيلة فعل الاغتيال، وما تستهلكه من تبذير للوقت في غير طائل... إنه ينعطف بالصورة عن مسارها الكاريكاتوري

"الغدة/ الورم" إلى مسار متشعب يميل نحو توظيف مقولة التزكية
المقنعة:

- "وهو دون كل ما ترمونه به".

متوالية قمينة بأن تتفرع عنها دلالات تعضيدية للتهكمية الصارخة:

- "فإنه ما يصلح إلا لحمل المشعل".

- "والمصيبة أنه مع هذا يتمكتب ويتمشعر".

- "يعمل أشياء تشبه جوف لحيته".

- "ما أدري بأي شيء ينفق على المقدمين؟!

- "هو لا يعرف شيئاً من أصناف الفواكه"؟!

يعج المسرود باستفسارات جدية حول:

- عن أي مشعل يتحدث؟

- على أي أساس يحاكم بـ: يتمكتب يتمشعر؟!

- مم عساه يتكون جوف لحيته؟

- ما العيب في عدم معرفة أصناف الفواكه؟ أو قل ما المشكلة

حين عدم التمييز بين تذوق أنواع الفواكه؟

- ما وجه الموازنة بين السارد وبين من سبقوه؟ هل حققوا النبوغ لأنهم

فلحوا في تصنيف الفواكه؟ تذوقوا فاحسنوا التذوق؟!

إنها سخرية "الوهراني" حين تشتد وتتصاعد إلى ذروة الترفع

عن المملول الممجوج، يقول على لسان أحد الحاضرين:

« يا غلام اغسل حلق القوم من ذكر الوهراني بشيء من
الكمثري الغيلاني والسكري... »⁴.

وإذا فما دام ذكر الوهراني غصة ومرارة في الحلق، فإنه يصبح
حافزا لتثبيت الفعل التهكمي الصانع لحركة المشهد، ومن ثم يغوص
صاحب المنامات في محاجات زجرية رادعة لمناوئيه، يقول على لسان
أحدهم:

« إيش رأيتم في استقامة الزمان حتى تعجبوا من هذا؟ قالوا
للجمل: « ما لرقبتك معوجة؟ قال وأي شيء في مقوم حتى تكون رقبتي
مقومة؟ » فحينئذ يتنفس أبو المعالي الصعداء وينشد:

تعس الزمان لقد اتى بعجاب ومحا رسوم الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انطلقت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب
لو كان يبلغ بالفضائل رتبة نلت العلى بكتابي وحسابي

ثم يقعوا (كذا) في هذا الوادي من الحديث، فيشتغلوا (كذا) عن ذكر
وهران هذا، إن صدق ظن الخادم وتخيله الصحيح، فالأمر يجري على
هذه الصورة ولا يخرم بكلمة من هذه الألفاظ والسلام»³.

لعلها في هذا المشهد ازدواجية التقريع مع التهكم، ينفثها السارد تحت
مظلة التعريض، بمن تناولوا عليه وجردوه من كل جميل، إنه - في
نظرهم - لا يصلح لشيء، وكأنه من طينة دون طينتهم، ألم ينعته
بالنحس وبالندالة؟ ألم يستقلوه؟ ألم يقابلوه بالنفور واللعنات؟ ألم ينعته

بالتمكّتب والتمشعر؟ وهو صاحب القلم المجلّال في ضروب الفعل الكتابي حيث الفكر والديباجة والتميز؟

تصفح سجلات الوهراني وتأمل بنيتها يركن بالقارئ إلى التشبث بمائزة الانفلات من قانون الأجناس الأدبية، إنه التمرد على نمطية الكتابة في وقت مبكر، تمرد رافده العلاقة المتخيلة داخل الثلاثية المعروفة: الأدب، الأديب، الناقد، وما تقابل به هذه المعادلة من جدل يمنح أحيانا إلى الإبحار في عمق المعارف الإنسانية المتراكمة.

وبعد كانت هذه مجرد قراءة لقطعة تراثية جزائرية استطاع صاحبها اختراق النطاق، وشد الوثاق، واستنفر الرفاق، ولم لا؟ خاصة إذا استحضرنّا إشارة "أدونيس": «غالبا يعمل الكاتب على ملاطفة الكلمات لكي يستطيع تقويلها ما لم تقله من قبل، لماذا إذا يتوجب على الكاتب العربي - تحقيقا لتلك الغاية - أن يستخدم العنف مع الكلمات، وأن يربعها؟»⁵.

يحق لنا أن نتساءل هل عنف الكلمات في مفهوم "أدونيس" هو نفسه الذي تطلع إليه "الوهراني" منذ قرون؟ هل الذائقة السمعية ترحب بهذا البوح وتنشد استساغته؟ إنه أدب الاختلاف في أحد تجلياته وكفى

هوامش

- ¹ - منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان محمد نغش،
مراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني ص 168-169 ، الناشر دار الكتاب العربي
للطباعة والنشر بالقاهرة 1968م
- ² - المنامات ص 169-170
- ³ - المنامات ص 170
- ⁴ - المنامات ص 172
- ⁵ - مجلة دبي الثقافية، السنة السادسة ، العدد 63 ، أوت 2010
ص 13.5